مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 2 خ / 16 /03/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

التأويل وجدلية اللفظ والمعنى

ابن رشد أنموذجا

Interpretation and the dialectic of word and meaning

Ibn Rushd as a paradigm

قدورعصام نورالدين Kaddour Assam noureddine issamkaddour45@gmail.com	الفلسفة	مختبر الفلسفة وتاريخها، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران2، الجزائر.
إشراف: أ.د بوعرفة عبد القادر Bouarfa Abdelkader Bouarfah9@yahoo.fr	الفلسفة	مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران2، الجزائر.

DOI : 10.46315/1714-010-002-012

تاريخ الارسال: 19/ 2020/03 تاريخ القبول: 2020/05/09 تاريخ النشر: 2021/03/16

ملخص باللغة العربية

يحتل سؤال التأويل مكانة رئيسة في الثقافة العربية الإسلامية، باعتبار الأخيرة حضارة النص بامتياز، فقد شكل النص المقدس فيها مرجعا لإنتاج المعرفة وتوليد المفاهيم، وتطلب بذلك حضور التأويل كضرورة لا مناص منها، وأصبح حاجة ملحة في توليد المعرفة من مركز ومحور الحضارة (النص الإسلامي المقدس)، ولعل ارتباطه بالنص هو ما جعل أهم محاور الجدل الفكري أنذلك، ذلك ما دفع "ابن رشد" أن يبرر حضور التأويل كضرورة ملحة، نظرا للأبعاد التي يحققها والتي تجعل النص منفتح الأفق، وتتجاوز الأمة من خلاله التقيد الحرفي بالنص، ويتحقق الفهم ويتمدد المعنى، محددا ذلك وفق ضوابط تناولها في مشروعه الفكري "فصل المقال ."

الكلمات المفتاحية: التأويل، الفهم، المعنى، النص، الأبعاد .

Abstract (English): The question of interpretation occupies a central position in the Arab-Islamic culture. As the Islamic civilization is the civilization of the text with excellence, the sacred text is a reference to the production of knowledge and the generation of concepts. Yet, the presence of interpretation demands an unavoidable necessity. The interpretation of the Holy Scriptures is the most important axis of the intellectual debate at the time, because of the dimensions it carries and its connection to tropic of the Holy Scriptures. This led " Ibn Rushd" to justify the presence of interpretation as an urgent necessity in order to make the text open skyline. Through which the nation will override the literal adherence to the text, and achieve understanding and expand the meaning, according to criteria he dealt with his intellectual project " Fasl al-Maqal ".

Keywords ; Interpretation ; Understanding , meaning ; text; dimensions.

1- مقدمة

كان للإسلام بكل تفرعاته دورا كبيرا في ظهور التأويل في مجتمع تشبث بالنّص القرآني أولا، واهتم بالنص النبوي ثانيا، ثم دأب على تمجيد نصوص السلف وآثارهم. ونظرا لسيطرة النص بأنواعه حدث صراع التأويلات بين الفرق الإسلامية والمذاهب الفقهية، والتي أثمرت عن ميلاد نصوص جديدة تُعتبر ظاهريا امتدادا للنص الأصلي بيد أنها تخالفه في أغلب الأحيان، وبذلك فإن نشوب صراع التأويلات ما هو إلا تعبير عن تعدد الفهم، واختلاف الرؤى والتصورات، وتدافع الإيديولوجيات داخل الأمة الواحدة.

إن مهمة التأويل هي تقديم معنى وأفق جديد في الغالب يكون غير مألوف، لأن التأويل هو فن الترجيح وليس فن التفسير، وعليه يُعتقد بأن مقامَ التفسير غير مقام التأويل: " **إن التفسير مرتبط بظاهر اللفظ وفق ما جرت عليه عادة التواصل عند أهل الخبر، والمعنى الظاهري هو الحاصل من علاقة الدال بالمدلول وفق أسس التواضع وملكة اللسان، ونُلاحظ بأن التأويل من حيث طبيعته يختلف عن التفسيرذلك أنه تقديم المرجح من المعنى على الأرجح من اللفظ.**" (بوعرفة ع.، 2009، صفحة 223).

يكرس التأويل تعددية الفهم ويؤسس لحضور السؤال، ويُبْرِزُ التأويل سيطرته كأداة مثلى في إنتاج المعنى الموازي للنص الأصلي، باعتبار أن كل فهم هو انتاج لمعرفة جديدة: **"أن المعرفة لا تستقيم إلا فهما /تأويلا أو صراعا تأويليا تكون الغلبة فيه للتأويل بوصفه فن السؤال بامتياز"** (بارة، 2008، صفحة 414)، إن الغاية الأسمى لعلوم التأويل هي تجسيد التجديد والاجتهاد والمساهمة في إعادة فهم وطرح مقاربات وقضايا النص الديني، بغية إعطاء منهجيات متنوعة تحكم علاقة ورابطة المؤول والمفسر بالنص، فلذلك أسهمت التأويلية المعاصرة في إعادة بناء مقاربات دينية جديدة تتجاوز الفهم التقليدي والانتقائي، الذي شكل إحدى عقبات ولوج حقل الإبداع والتجديد، فبذلك يمكن اعتبار الهيرمينوطيقا: **"قضية قديمة وجديدة في نفس الوقت وهي في تركيزها على علاقة المفسر بالنص ليست قضية خاصة بالفكر الغربي، بل هي فضية لها وجودها الملح في تراثنا العربي القديم والحديث على السواء"** (بن عدي، 2015، صفحة 86)، وعليه، لا يمكن اعتبارها توجها أو إنتاجا غربيا خالصا بحكم تعلقها وحضورها القوي في التراث العربي القديم، حيث برز في الفكر الإسلامي الوسيط عدة مؤولة من علماء الدين والفلاسفة والمتصوفة، وكان أبو الوليد ابن رشد أنموذجا، شكل سؤال التأويل أبرز اهتماماته الفكرية والثقافية، وتجلى بوضوح في أحد شواهده الفكرية "فصل المقال" والذي ساقه لقضايا الفهم والتأويل والنظر العقلي، وأمام حرص ابن رشد على تثبيت مكانة العلوم العقلية، وخاصة الفلسفة والمنطق. جعل البعض يصف التأويل أنه نزعة رشدية خالصة، وينعته بفيلسوف التأويل وهذا

يعكس مشروعه الضخم "فصل المقال" الذي صاحبه توتر فكري في إنجازه لذلك، كونه اتخذ منه متكأ في التصحيح والنقد للغير وتوضيح النظر لمسألة الحكمة والشريعة وما بينهما من اتصال، كل ذلك ينم حرص "ابن رشد" على إحياء حوار فكري جديد لا يتحقق إلا وفق التأويل كمنهج واستراتيجية.

إن إشكالية البحث تكمن في القول بأن النظر العقلي في النص واجب شرعي حسب ابن رشد، وقد جعل من سؤال التأويل الوعاء التي تجتمع فيه الفلسفة والحكمة، ذلك من خلال الانفتاح التي ينتجه التأويل لمفاهيم ومعاني جديدة للنص /الخطاب، ويحفز الدعوة للاجتهاد في المسائل والقضايا الدينية، أو الفلسفية منها، كما يؤسس لمشروعية الاختلاف بعدما تصبح الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية نتاج اجتهاد التأويل، إلا أن دعوة ابن رشد في ضرورة حضور التأويل كأداة تمكن من تمدد المعنى، وإعادة انفتاح النص، قد تضمنت إخضاع ذلك لجملة الضوابط والحدود تخص طرق البراهين ومناهج التأويل، وعليه نطرح التساؤل الأتي:

ما مدى حضور التأويل في التراث العربي الإسلامي؟ وما أبعاده؟ كيف يمثل التأويل أساسا ومنطلقا في تمدد المعنى؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات تقتضي إتباع منهج معين في الدراسة والبحث، بحيث اعتمدنا على المنهج التحليلي كونه يمكن من تحليل بطابع موضوعي للمشروع التأويلي ومعرفة آليات قراءة النص، ومعرفة ضوابط وقوانين الممارسة التأويلية الصحيحة التي تهدف لبلوغ المعنى الأصلي، كما فرضت علينا إسقاطات المشروع التأويلي الرشدي على الراهن العربي والإسلامي، من الاعتماد على المنهج النقدي.

يتحدد هدف الدراسة، من الوقوف على المشروع التأويلي العقلاني للنص عند ابن رشد، خصوصا ما تعلق منها بتبيان آليات قراءة النص، التي تمكن من تجاوز طوق أزمة الفهم، وتؤسس لحضور السؤال- التأويل، ومعرفة الاستراتيجية التأويلية الصحيحة للنص، وتسليط النظر على ضوابط وحدود ذلك، في توليد معنى أصلي للنص، وتوضيح أبعاد التأويل كاستراتيجية وممارسة في خلق حوار فكري يؤسس للاختلاف، كل ذلك ما نروم لأجله في هذه الدراسة.

أولا: التأويل، المفهوم والدلالة.

يُعتبر مفهوم التأويل من أبرز المفاهيم الرئيسة والمحورية في تاريخ الفكر الإنساني، لكون الإنسان الأول كان صانعا وخالقا للمعنى، وكانت غايته في الوقت نفسه بلوغ الحقيقة، لذا نجد الإنسان العاقل قد بذل قصارى جهده بحثا عن ذلك، لذا مارس التأويل كسبيل للفهم والمعرفة، وقد انطلق التفسير من الظواهر الطبيعية أولا، ثم شمل الرموز والإشارات، ثم النصوص

المقدسة، ليتمدد بعدها ويشمل كل مجالات المعرفة...، مما سمح له بأن تكون له مكانة بارزة وحضور دائم في المسائل الفكرية لكونه أصبح يخص الإنسان المفكر في حد ذاته.

وعلى هذا الأساس: **ما الدلالة اللغوية لهذا المفهوم؟**

تعود كلمة "الهيرمونيطيقا" Herméneutique، المشتقة من الاصل الإغريقي: Erme-neutica، إلى تفسير نصوص فلسفية أو دينية، وبنحو خاص الكتاب (شرح مقدس)، وتقال هذه الكلمة خصوصا على ما هو رمزي (لالاند، 2001، صفحة 555)

كما تتركب كلمة هرمونطيقا في أصولها من الفعل hermeneuin والاسم hermeniaK وهما كلمتان يونانيتان، إلا أن بعض الباحثين يرون أنه مأخوذ من hermeneutikos، والتي تعني التوضيح والغموض (الكلبايكاني، 2013، صفحة 18)، إلا أن القصد المتداول لاصطلاح "هرمينون" و" هرمينيا" تعود إلى "هرمس" وهو رسول آلهة اليونان والوسيط بينهما.

وتفيد العلاقة الموجود بين "**هرمس**" والتأويل كنظرية، لكون اسم هرمس يقصد به: "**تحويل كل شيء خارج دائرة الفهم والإدراك البشري إلى شيء قابل للفهم ولإدراك**" (الكلبايكاني، 2013، صفحة 18).

كما ورد في لسان العرب لابن منظور أن: "**التأويل من أَوَلَ، يؤولُ، تأويلاً. ويفيد الفعل: أَوْلُ: أي الرجوع، وآل الشيء: رَجَعَ، وأَوَلَ إليه الشيء: رَجَعَه. وأول الكلام وتأوّلَه: دبره وقدره، وأوله وتأوله: فسره.**" (ابن منظور، الصفحات 172-171)

ويفيد فعل آل يؤول : **أي رجع وعاد** (ابن منظور، صفحة 172)

فكان التأويل بهذا المعنى إرجاع المعنى واللفظ بشكل واضح، أي بمعنى آخر تأويل المعنى بمعنى، ومنه جاءت، "**تأولته بمعنى** " (ابن منظور، صفحة 172)

وكما عبر عنه "الفيروزآبادي" "**أنه تأوله تفيد: دَبرهُ وقدرَهُ وفَسرَهُ**". (الفيروزآبادي، 2005، صفحة 963)

يتبين من التحليل اللغوي أن التأويل، يقصد به إيضاح المعان الذي يخالطه اشتباه أو التباس، أو بتعبير آخر: "**هو علم أو فن مرتبط ببيان تشكل الفهم، بلحاظ متعلقة أو حدوده، في النصوص المكتوبة أو مطلق النشاطات الإرادية والاختيارية للإنسان أو مطلق حقائق الوجود**". (الكلبايكاني، 2013، صفحة 22)

أما من الناحية الفلسفية، فقد شكل البحث عن حقائق الأشياء سمة رئيسة في كل الفلسفات، وخصوصا الفلسفة الإسلامية التي كانت مرتبطة بوثوق بمدار النص الديني، وحضور التأويل داخل التراث الإسلامي بتعدد فرقه ومذاهبه انعكس على تنوع الرؤى والتصورات حول مفهوم التأويل، وبذلك كان الاختلاف حول تعريفه تفرضه دواعي فكرية وإيديولوجية وأسباب

أخرى، لنقف بإيجاز على بعض من عرف التأويل، ولننطق أول الأمر مع الغزالي الذي عرفه: **"عبارة عن احتمال يعضده دليل، يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر ويشبه أن يكون كل تأويل صرفا للفظ عن الحقيقة والمجاز"** (الغزالي، 1992، صفحة 388)

أما ابن رشد فيعرفه: **"بإخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه آو بسببه أو لاحقه أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازي"** (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 96)

نستنتج مما سبق، بأن التأويل هو وضع كل شيء موضع السؤال/ الفهم/ التَأَوُل، بغية سبر أغوار النصوص لاستنطاق المضمون للوصول إلى عمق المعاني، ويجعل من لحظة الوصول خطوة للفهم الجديد التي يتيح فرص الإبداع والتجديد للمفاهيم والمعاني، فيتنوع ويتعدد المفهوم والمصطلحات.

إلا أن التأويل كمشروع يحدد استراتيجية فهم

حقيقة الأشياء، وبذلك تكون أولى محطاته تجاوز أزمة الفهم، وبذلك يتحول السؤال حول المفاهيم والأشياء من صيغة السؤال، إلى صيغة **كيف يصبح الفهم ممكنا؟**

ثانيا: من أزمة الفهم إلى جدل التأويل والمعنى.

تمثل ثلاثية " الفهم- التأويل –المعنى" أبرز الجدليات التي كثيرا ما يشار إليها باعتباره العنصر المميز في عملية المعرفة وطرق تحصيلها، ويبرز غالبا في مسائل الوقوف على دلالة النصوص والمفاهيم والمعاني، إذا يتجلى ارتباطها الوثيق بجدلية المعنى والفهم، كون إنتاج المعنى يتحقق في ضوء تجاوز أزمة الفهم من خلال استراتيجية التأويل أو بعبارة أخرى أنه: **" ترتبط فكرة المعنى بفكرة الفهم بواسطة عملية دائرية ثنائية الاتجاه (فعل وفعل رجعي)، ويمكننا أن نؤول العملية التي يعبر عنها لفعل "فَهِمَ" باعتبارها عملية هدفها البلوغ إلى المعنى Sens ، وأن نؤول بالعكس "المعنى" باعتباره النتيجة التي تبلغها عملية الفهم"** (بيجوان، 2009، صفحة 336)، أي أنه لا جدوى من الوقوف على المعنى إلا بواسطة الفهم، (يؤخذ مصطلح الفهم: فَهِمَ Comprendre من معجم Le Petit Robert (pr) المرادفات التالية: Déchiffrer، وهي حل الرموز، ومعناها أَولَ Interpréter،...كما ورد في ذلك دعابة التالية المحملة بالدلالات: ومفادها" إنه سريع الفهم ولكن ينبغي أن نشرح له مطولا "والغرض من ذلك إبراز تسلسل عملية الفهم في المدة الزمنية، وقيمة الفهم في تشكل المعنى)، هذا الفهم الذي بدوره يستلزم وجود الفاعل في عملية الفهم بحرية تامة، وبذلك تكون قاعدة الفهم الأساس النظري الذي يستند إليه في بلوغ المعنى، علاوة إلى التجربة الفردية للفاعل في الفهم وإلى معطيات الواقع الخارجي التي تؤثر في مجريات ذلك، أو بتعبير أخر"...**أن المعنى هو بمثابة الإدراك النظري**

السكوني لظاهرة فهم ديناميكية، ويتصف هذا الإدراك في أن بطابعه الضروري الذي تسوغه الممارسة، إنما المُختزل، لأنه يحجب طابعه الديناميكي الذي يشكل النتيجة التي تبلغها كل عملية معرفية" (بيجوان، 2009، صفحة 337)، ويتجلى في ضوء ذلك المعنى كمعرفة جديدة للنص.

ثالثا: التأويل بين الحدود والضو ابط:

رغم كون تأويل النص الديني يفتح سبل الاجتهاد ويمنع الفكر والعقل من السير في نهج واحد تطغى عليه صفة الدوغمائية، إلا أن ذلك يخضعه ابن رشد لجملة الضوابط والحدود حتى لا يقع أهل التأويل في مصاف وخانة التكفير والزندقة؛ بحكم اعتبار مسائل التأويل والاجتهاد في ذلك تخضع لجملة الضوابط والاستراتيجيات سواء منها الفكرية آو العقائدية.

إن تأكيد ابن رشد على وجوب النظر العقلي في الشرع من خلال النظر البرهاني خاصة إذا ما تعلق الأمر بالمواضيع والمسائل التي سكت عنها الشرع، لقوله في ذلك:" **فإن كان قد سكت عنه، فلا تعارض هنالك، وهو بمنزلة ما سكت عنه من الأحكام، فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعي، وإن كانت الشريعة نطقت به، فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون مو افقا لما أدى إليه البرهان فيه، أو مخالفا، فإن كان مو افقا فلا قول هنالك، وإن كان مخالفا طلب هنالك تأويله"** (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 32)، وكل نظر برهاني بحسب ابن رشد هو طريق للوصول إلى معرفة ولحقيقة ما: " **وإذا كان هذا هكذا، فإن أدى النظر البرهاني إلى نحو ما من المعرفة بموجود ما، فلا يخلو ذلك من الموجود أن يكون: قد سكت عنه الشرع أو عرف به"** (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 32)، ولا يجوز تأويل ما أجمع عليه العلماء لقول ابن رشد: **"...أما لو ثبت الإجماع بطريق يقيني لم يصح، وإن كان الإجماع فيها ضنيا فقد يصح"** (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 34)، إلا أنه بيّن أن مسائل الإجماع محصورة لا تتعدى مسائل معينة ليس محل إجماع أو اجتهاد بين العلماء: **"وقد تبين من قولنا أنه ليس يمكن أن يقرر إجماع من أمثال هذه المسائل، لما روى عن كثير من السلف الأول، فضلا عن غيرهم، أن هاهنا تأويلات لا يجب أن يفصح بها إلا لمن هو من أهل التأويل وهم الراسخون في العلم لأن الاختيار عندنا هو الوقوف على قوله تعالى" والراسخون في العلم"** (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 37) وتلك المسائل ما يتعلق خصوصها بأصول الشرع .

يُبيّن ابن رشد وجوب التأويل في حالة تعارض ظاهر الشرع مع العقل لقوله: **"إنه ما من منطوق به في الشرع، مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان إلا إذا اعتبر وتصفحت سائر أجز ائه، وجد في ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل، أو يقارب أن يشهد"** (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 33)، **وبذلك بين ابن رشد أن طرق التصديق متباينة بين بني البشر ومنهم البرهانيون والجدليون والخطابيون، وكل يصدق بأقاويله المبينة لقول ابن رشد في ذلك :"وذلك أن طباع**

الناس متفاضله في التصديق، فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية تصديق صاحب البرهان(بالبرهان) إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك، ومنهم من يصدق(بالأقاويل) الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية" (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 31)

يتعين بحسب ابن رشد على الجمهور ألا يستند في فهمه وتأويله بالمقررات العقلية، لما في ذلك من مخاطر لكون قدرات الناس في التصديق متباينة ومتفاوتة، وهو ما يجعل بعض الأفكار عرضة للمغالاة والمزايدة والافتراء والتناقض، وذلك بسبب بديهي وهو التفاوت بين الجمهور في القدرات العقلية: **"والسبب في ورود الشرع فيه الظاهر والباطن هو اختلاف نظر الناس وتباين قرائحهم في التصديق، والسبب في ورود الظواهر المتعارضة فيه، هو تنبيه الراسخين في العلم على التأويل الجامع بينهما وإلى هذا المعنى وردت الإشارة بقوله تعالى: "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات" إلى قوله " والراسخون في العلم".** (ابن رشد أ.، 2002، الصفحات 33-34)

***- التأويل: ثنائية الصواب والخطأ**

إن التأويل مبني على الاختلاف، أي لا يكون فيه نتيجة الاجتهاد قطعية بل ترجيحية، وبمعنى آخر لا تتفق ولا تنحصر في معنى واحد عند مجموع الناس، لذلك كان ورود الاختلاف محتملا. وبما أن التأويل عند ابن رشد يعكس مشروعه الديني والفلسفي، نلاحظ بأنه تسامح في بعض الأخطاء التي ترد في اجتهادات العلماء لأجل إرساء معالم الفهم المستنير، **وبذلك يصنف ابن رشد الخطأ الوارد في الشريعة ضربين:**

1- **"خطأ يعذر فيه من هو من أهل النظر في ذلك الشيء الذي وقع فيه الخطأ ...ولا يعذر فيه من ليس من أهل النظر"** (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 45)، وهذا يختص به أهل التأويل من أهل الاجتهاد فهم معذورون في الخطأ لشبهة عرضت لهم، **لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران"**، أما الذي ليس من أهل التأويل فلا عذر لهم.

2- **" خطا ليس يعذر فيه أحد من الناس، بل إذا وقع في مبادئ الشريعة فهو كفر، وإذا وقع فيما بعد المبادئ فهو بدعة"** (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 45)، وبذلك يكون تأويل المبادئ الثلاثة للشريعة: الإقرار بالله، وبالنبوات وباليوم الآخر، بمثابة مسائل يحظر تأويلها وكل تأويل لها فهو كفر بحسب ابن رشد.

وبذلك أصبح من غير الجائز تأويل الآيات والنصوص التي تدعو إلى الإيمان إيمانا قلبيا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، أما غيرها من النصوص القرآنية فيجوز تأويلها إذا تعارض ظاهرها مع العقل وإن لم يكن بصددها إجماع فذلك هنا يجوز التأويل: **" ونحن نقطع قطعا أن كل ما**

أدى إليه البرهان، وخالفه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي" (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 33)، وقد قنن ذلك بجملة الشروط يمكن حصرها في ثلاثة نقاط:

1- احترام مميزات وخصائص الأسلوب العربي في عملية التأويل.
2- التقيد والالتزام بالوحدة الداخلية للنص والقول الديني.
3- النظر في القدرة المعرفية لمن يوجه إليهم التأويل، وبذلك بغية إعطاء التأويل والاجتهاد حسب القدرات والمعارف على استيعابه.

يعتبر ابن رشد بأن وجود التأويل أمر لا مناص منه في فهم معنى الآيات القرآنية، وأن الشرع فيه ظاهر وباطن، وأن الباطن لا يتجلى إلا لأهل البرهان وهم البرهانيون لقوله: **" وهذا هو السبب في أن انقسم الشرع إلى: ظاهر وباطن، فإن الظاهر هو تلك الأمثال المضروبة لتلك المعاني والباطن هو تلك المعاني التي لا تتجلى إلا لأهل البرهان"** (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 47) **وعلى اساس ذلك يصنف ابن رشد الناس إلى ثلاثة أصناف:**

1- **الخطابيون:** صنف ليس من أهل التأويل أصلا، هم الجمهور الغالب، وذلك أنه ليس يوجد أحد سليم العقل يعرف هذا النوع من التصديق.
2- **الجدليون:** وهم أهل التأويل الجدلي، ويعرفون بالجد ليين بالطبع أو بالطبع والعادة.
3- **البرهانيون:** وهم أهل التأويل اليقيني، وهم البرهانيون بالطبع والصناعة، أي صناعة الحكمة (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 48)

كما يبين ابن رشد خطورة التصريح بالتأويل لأهل الجمهور والجدل، لما في ذلك من مخاطر تمس العقيدة والشرع، كون التصريح بذلك يفضي إلى إثبات المؤول وإبطال الظاهر خاصة إذا كان من عند أهل الظاهر وبالتالي يؤدي ذلك إلى الكفر خاصة إذا تعلق الأمر بأحد أصول الشرع يقول في ذلك ابن رشد: **"...ومتى صرح بشيء من هذه التأويلات لمن هو من غير أهلها، وبخاصة التأويلات البرهانية، لبعدها عن المعارف المشتركة، افضى ذلك بالمصرح والمصرح به على الكفر، والسبب في ذلك...إبطال الظاهر و إثبات المؤول عند من هو من أهل الظاهر ولم يثبت المؤول عنده، أداه ذلك للكفر، إن كان في أصول الشريعة"** (ابن رشد أ.، 2002، صفحة 58)، كما خص في حديثه الحذر من الأساليب الخطابية والجدلية الذي استند له علماء الكلام، التأويل الكلامي، و الذي ظهرت على ضوئه فرقتين**"...فرقة انتدبت لذم الحكماء والحكمة، وفرقة انتدبت لتأويل الشرع وروم صرفه إلى الحكمة، وهذا كله خطأ، بل ينبغي أن يقر الشرع على ظاهره، ولا يصرح للجمهور بالجمع بينه وبين الحكمة لأن التصريح بذلك هو تصريح بنتائج**

الحكمة لهم، دون أن يكون عندهم برهان عليها وهذا لا يحل ولا يجوز" (ابن رشد ا.، 1998، صفحة 151)

رابعا: التأويل كاستراتيجية في انتاج المعنى

إن طرح ابن رشد الرامي للوصول إلى الحقيقة من خلال الربط والجمع بين حقيقة التأمل العقلي في القضايا العقائدية هو واجب شرعا وعقلا، ذلك ما يحمله من مبرر منطقي وبرهاني لكون حث القرآن على إعمال العقل، ذلك ما يعبر عنه قائلا: **"لكون الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به، فذلك بين في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى"** (إبن رشد، 1956، صفحة 22)، كما يكون ذلك أداة في تأويل المفاهيم/النص، لتمديد المعنى.

إن الدّعوةَ إلى التدبر والتأمل والتعقل جاءت مبثوثة في مواضع عدة في القرآن الكريم، كقوله تعالى:**{فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ} (سورة الحشر، الآية02)** كون الله خلق البشر ولم يضع الحقيقة بين أيديهم، بل جعلها محل بحث وتنقيب بواسطة العقل، إلا في حال إصدار الأحكام الشرعية التي هي خارج نطاق ودراية الإنسان، تبعا لقوله تعالى:**{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}**، **(سورة الإسراء، الآية36)**، علاوة إلى حضور التأويل في سبعة عشرة موضعا صريحا، وذلك ما يبرر به ابن رشد موقفه في قوله تعالى:**{هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ}** (سورة آل عمران، الآية07).

كما لا ننسى دفاع وحرص ابن رشد في وجوب النظر العقلي من خلال الفلسفة، كون ذلك يهدف لبلوغ المعنى الحقيقي للمفهوم، باعتبار هذا الأخير لديه طبقات متفاوتة، ولا جدوى من اكتشافها إلا بالعقل، كما تهدف الفلسفة باعتبارها أفضل الطرائق لمعرفة الحقيقة الإلهية، لاعتمادها القياس لبرهاني اليقيني: **" النظر البرهاني لا يؤدي إلى مخالفة ما ورد به الشرع فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له"** (إبن رشد، 1956، صفحة 31)، كل ذلك يسمح حسب ابن رشد في توليد مفاهيم وأفكار جديدة نابعة من نسق المعرفة الإنسانية، وتبرز على ضوئها رؤى وتصورات تشكل أفق متسع وجديد، تصبح معقولة بعدما كانت العقول تنظر له وتصنفه في خانة اللامعقول.

يؤسس "ابن رشد" التأويل على مشروعية الاختلاف المبني على أسس عقلية أو علمية كانت، لتجاوز النظرة الأحادية، التي تفرض الخنوع الفكري لمريديه بإتباع القراءة الحرفية للنص، وبذلك يسعى ابن رشد لتجاوز ذلك، وبناء أرضية تسمح بالاختلاف الفكري الزاخر.

والخصب سواء في المنهج أو الطرح أو التصور، هو الحافز الذي أوجب على ابن رشد النظر بروح جديدة وبعمق وفي الأطر الفكرية التي تشكل نواة ومصدر الثقافة العربية الإسلامية، وذلك بعد تحليلها والتعمق فيها بموضوعية، ذلك يفرض بحسب ابن رشد خصوصيات فريدة، كون تحليل وتفسير النص الفلسفي يتطلب اطلاعا ودراية أعمق بالعلوم الفلسفية وتخمينا ضخما، فكذلك علوم الشريعة تستوجب بحسبه اجتهادا وإدراكا، وإلماما بالشريعة، لكون النص الديني مقتضب يعالج عموميات البشر، وبحكم التّحول والتغير المجتمعي والفكري والثقافي والتطور البشري، فإن مواجهة العقلاء للنص بالتأويل واجب لاستنباط ما يمكن استنتاجه لمواجهة التغيرات الحاصلة في حياة بني البشر، وهو ما أدى لنشأة جملة العلوم الإسلامية المتعددة.

خامسا: التأويل والمعنى ما بعد ابن رشد.

أ- مدى حضور الخطاب الرشدي في الراهن العربي والإسلامي:

بعد الدراسة والتحليل الموضوعي للخطاب الرشدي التأويلي لقضايا الفقه والفلسفة، ورغبة منا في إخضاع الراهن العربي الإسلامي على محك الخطاب الرشدي ارتأينا معرفة وتقصي مدى حضور هذا الخطاب في راهننا المعاصر.

إن التأمل الفلسفي في الراهن العربي الإسلامي اليوم لا يبعث على الاطمئنان بل يجعل الأمة تعيش حالة قلق فكري في غياب التأويل العقلي للنص القرآني، جراء بروز صراع نظريات تأويلية، تحركها صراع مذاهب ورؤى حول القرآن ومسائل العقيدة، وكانت محاولة المؤولة المعاصرون في كسر طوق بعض النصوص التي اعتقد البعض من السابقين أنها أُقفلت، ولم يعد الحديث حولها، خصوصا في القضايا والثنائيات المعروفة (الظاهر والباطن) (التنزيل والتأويل)...وغيرها، وتجلى في خضم ذلك تقسيم المعرفة الواحدة إلى تقسيمات إبستيمية وفق الجابري الذي حددها في معرفة برهانية، عرفانية، بيانية.

إن ما كان يهدف له ابن رشد من مشروعه التأويلي للنص هو فتح حوار طبيعي بين الحكمة والشريعة، يكون فيها الإيمان بالعقل، من أجل توجيهها نحو مستقبل تغيب فيه الخطابات الدينية المتعددة والمتنوعة - تكفيرية وتعصبية - وممارسات لا أخلاقية، ووضع إنساني ممزق ومفتت، وهي المشاهد والممارسات التي يتخبط فيها الواقع الفكري والحضاري للأمة العربية الإسلامية.

إن الاختلاف الذي ينجم عن صراع التأويلات هو اختلاف تمليه حقيقة التأويل ذاته ،كونه اختلاف مرتبط بحقيقة النص الشرعي، هو ما تجلى في زخم هائل من الأبحاث التأويلية ذلك الوعي غاب عن النزعة التأويلية العربية، وبروز لا عقلانية في التعامل مع النص (القران الكريم) بنوع من الانفتاح وتكريس للاختلاف بل كبلت الإنسان المعاصر: **"قيم اللاعقلانية وفشت فيه الأنانية**

وثقافة الاختلاف والاعتزاز الوطني واستبدت به ثغرات التطرف الديني والعرقي" (غيضان، صفحة 02) والذي أصبحنا نعيش من خلاله على تمييز بين بني الدين الواحد (الإسلام).

لقد انعكس غياب مشروع عقلاني تأويلي في ظهور نزعات فكرية تغلب القراءة الحرفية للنص، وتتجاوز وتنفي أي قراءة تأويلية تجعل النص منفتحا، ويعرف تمددا للمعنى، وهو ما أدى إلى مظاهر التكفير والإقصاء للطرف الآخر باسم الدّين، وهذا يؤكد سوء فهم لمحتوى رسالة الأديان، لأن كل الأديان: **"مهما كانت تحمل معها رسالة ومقاصد كلية التي تتلخص مجملها في إشاعة السلم والتراحم والمحبة بين الناس والسعي لتخفيف منابع العنف والعدوانية والتعصب"** (الرفاعي، 2013، صفحة 279)، وهي الممارسات التي غابت عن الواقع الفكري والحضاري الإسلامي، وسبب ذلك غلق أفق التجديد من خلال تأويل النص القرآني: **"نظاما أسلوبيا تشكل داخل نظام اللغة العربية وتجاوزها في آن، فله من القراءة والتمييز ما يجعله لغة مخصوصة لا نظير لها، يخترق القاعدة أو المعيار ويعدل عنه مؤسسا نظامه الخاص الذي به يتحدد فهما وتأويلا"** (بارة، 2008، الصفحات 434-435)، وبذلك يسمح كل فهم وكل تأويل توليد نصوص جديدة من النص الأصلي، يساير على ضوئها متغيرات وتطورات المجتمع؛ ومن جهة يتيح للأمة ازدهارا ثقافيا وفكريا، وتتجاوز الأمة النظرة الواحدة للنص، والتي تجعل من تلك الانعكاسات بمثابة عوائق في وجه الأمة والحضارة بحكم: **"أن نمو الثقافة الإسلامية كان بتقديمها إمكانات جديدة للتأويل وبالتالي للفكر، كذلك تكشف هذه النظرة للتأويل بأنه ليس ثمة قراءة واحدة للعلوي والمفارق، وليس ثمة نظرة وحيدة الجانب للوحي، ففي كل قراءة يتأول الحق من جديد"** (الوائلي وآخرون، 2017، صفحة 347)

ويمكن القول بأن الاستفادة من ابن رشد اليّوم تكمن في عدة نواحي، وخاصة تحرير المسلم من النسق المغلق القائم على منطق ما قاله السلف وسيطرة الأثر، ويمكن القول بأن الاستفادة يمكن أن تكون فق الوتيرة الآتية: **" تكمن الاستفادة العظمى في رأينا في وضع ابن رشد كنموذج للمفكر الحر الذي يقول آراؤه وموا اقفه بكل حرية، وتكون له الجرأة على قول الحقيقة."** (بوعرفة ع.، 2016، صفحة 28).

ب- أزمة المعنى في الفكر العربي والإسلامي المعاصر:

إن الراهن العربي والإسلامي أمام تحدي الخطابات الدينية التعصبية والتكفيرية التي جعلت البيئة العربية والإسلامية مستنقعات دموية هنا وهناك جراء الفهم الخاطئ والضيق للدّين، وتنامي مظاهر التكفير وتوظيف الدّين لخلفيات إيديولوجية لحماية مصالح معينة وحصر النص ضمن نظرة ضيقة أحادية، كرس مظاهر وممارسات تتنافى مع الممارسة الدينية الحقة، هي صراعات يرفضها القرآن في بعض الآيات الناطقة، بل الأجدر أن نفتح النص نحو التجديد، لكون

غاية المهمة والملحة للتأويل بذلك يكون هذا الأخير:"**ضرورة من ضروريات تفسير النص(...) لتوضيح الشرع وتأييده، من منظور أن التأويل المشروع هو الوسيلة الفعالة للتعليل المقنع، ومن حيث كونه يعالج المستجدات والمستحدثات الناتجة عن تطوير الزمن وتقدم الحياة، أضف إلى ذلك أن التأويل هو الوسيلة الناجعة لتقريب مفهوم التوحيد و إتاحة الفرصة لعامة الناس لتقبل الدلالة على الوجه المطلوب ضمن إطار بنية النص الشرعي، النظيرة لبنية مستحدثات الأفعال، وهو الأمر الذي يستهدفه كل الناس، بغرض الكشف والتعرف على عمق الدلالة التي يتضافر بها و اقعهم**" (الوائلي وآخرون، 2017، صفحة 347)، لذلك لا بد من المزاوجة بين التأويل والنص، حتى يتمكن العقل من اكتشاف والبرهنة عقليا على بؤر الحقيقة ضمن مجالات النص، وهنا بالفعل تتجلى أهميته في محاولة استعاب ما غمض وصعب فهمه، وهنا تبرز الحاجة الملحة أيضا، في استنباط جزئيات الأحكام الشرعية بعدما تحدث النص عن العموميات، وعليه، كان وجوب النظر العقلي من خلال التأويل ما تفرضه الحاجة ومتطلبات فهم أبعاد الفقه والأحكام شرعية، وفتح أفق النظر الإنساني على أوجه جديدة للحقيقة والخيال، مما يتيح للمتأول التنعم في فضاءات التأويل الواسعة، وخوض مغامرات العقل في فتح المستغلق.

- المصادر والمراجع

- ابن رشد، أبو الوليد. (1956). فصل المقال. تحق: محمد عمارة، ط2، القاهرة: دار المعارف.
- ابن رشد، أبو الوليد. (1998). مناهج الأدلة في عقائد الملة. بيروت لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ابن رشد، أبو الوليد. (2002). فصل المقال. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ابن منظور، الإفريقي. (1998). لسان العرب. مج 1 جز3، بيروت: منشورات عويدات.
- الرفاعي، عبد الجبار. (2013). إنقاذ النزعة الإنسانية في الدّين. بغداد العراق: مركز دراسات فلسفة الدين.
- الغزالي، أبو حامد. (1992). المستصفى في علم الاصول. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الكلبايكاني، علي الرباني. (2013). الهرمنوطيقا ومنطق فهم الدين، تر: داخل الحمداني، ط 1، 2013، العراق. مؤسسة آهل الحق الإسلامية.
- الوائلي عامر زيد وآخرون. (2017). مدخل إلى فلسفة الدين. الجزائر: ابن النديم للنشر.
- بارة، عبد الغني. (2008). الهرمنيوطيقا والفلسفة. الجزائر: منشورات الاختلاف.
- بن عدي، يوسف. (2015). أطروحات في الفكر العربي المعاصر. المغرب: دار التوحيدي.
- بن يعقوب محمد الفيروزآبادي. (2005). القاموس المحيط. ط8، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- بوعرفة عبد القادر وآخرون. (2009). التأويل والترجمة. بيروت: الدار العربية ناشرون.
- بوعرفة، عبد القادر. (2016). العرب وأسئلة الماضي والحاضر والمستقبل. بيروت: دار الروافد الثقافية.
- بيجوان، هنري. (2009). المعنى في علم المصطلحات. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- غيضان، السيد علي .(2014). أثر الأخلاق الكانطية في الفكر العربي المعاصر. مجلة مؤمنون، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 55.
- لالاند، أندري . (2001). موسوعة لالاند الفلسفية. ج3، بيروت لبنان: منشورات عويدات.